جان نيدرفين بيترس

العولمة والثقافة ... المزيج الكوني

ترجمة خالد كسرواي؛ مراجعة طلعت الشايب

(القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2015). 238 ص.

محمد حدوي(*)

أستاذ علم الاجتماع، جامعة السلطان مولاي سليمان بني ملال ـ المغرب.

يكثر الحديث في أيامنا هذه عن نظام عالمي جديد وعن ما يسمى العولمة. بعبارة أوضح، يكثر الحديث في أيامنا هذه عن كون أننا نعيش في عصر يسمى عصر العولمة، ذلك العصر الذي صار فيه الحديث عن كرة أرضية بمثابة قرية صغيرة. والكتاب الموسوم بعنوان **العولمة والثقافة... المزيج الكوني** الذي نحن بصدد مراجعته يتناول أحد المواضيع التي ترتبط بجانب من جوانب هذه العولمة، ويتعلق الأمر بالعولمة الثقافية. الكتاب من تأليف جان نيدرفين بيترس باللغة الإنكليزية سنة 2009، بـ 238 صفحة، ترجمه إلى العربية خالد كسرواي، وراجعه طلعت الشايب من المركز القومي للترجمة، سنة 2015. وهذا الكتاب يتناول العولمة التي تخطت القوميات بوصفها تهجيناً، أي أن العولمة بعبارات ثقافية «تميل نحو مزيج كوني». ويدين هذا الكتاب على الأرجح بجزء كبير من جاذبيته كما أعلن المؤلف عن ذلك إلى تركيبة صفاته، حيث إن المؤلف انثروبولوجي في الأساس، والأنثروبولوجيا كما تعلمون منظور إدراك ل«الثقافة». والمميز الأكثر جاذبية في الكتاب، هو أنه يتبنى منهجاً عميقاً من الناحية التاريخية يطور منظور المزج الكوني أو التهجين، ويمشكل الثقافة. وكل موضوعات هذا الكتاب بسطها المؤلف في سبعة فصول جاءت كما يلي:

ـ 1 ـ

في الفصل **الأول** من الكتاب يعرض المؤلف الإشكالية العامة للعولمة، واستهل كلامه بصورة بلاغية جذابة شبّه بها العولمة بمنشور زجاجي تنعكس فيه الخلافات الكبرى المتعلقة بالحالة الإنسانية الجمعية؛ وأشار إلى أن القضايا الرأسمالية وعدم

(*) البريد الإلكتروني: medhaddaoui1@gmail.com.

المساواة والطاقة والتنمية والبيئة والثقافة والنوع والهوية والكثافة السكانية قد عادت مرة أخرى في صورة قد شكلتها العولمة.

وبعد ذلك شرع المؤلف بعرض مناطق الاتفاق والاختلاف في أدبيات العولمة، ويرى أن هناك صعوبة في رسم خط فاصل بين الاتفاقات والاختلافات حول العولمة؛ لأن العولمة تستدعي اختلافاً أكثر من الاتفاق، كما أن مساحات الاختلاف تفوق كثيراً مساحة الاتفاق. فالعولمة أنتجت نظاماً جديداً للاختلاف ـ ذلك الاختلاف ـ الذي أُنتج بواسطة الرأسمال الذي يعمل من خلال الخصوصية.

ـ 2 ـ

ينطلق الفصل **الثاني** بسؤال حول ما إذا كانت العولمة تميل إلى التكامل الإنساني. وإذا كانت العولمة في الوقت الراهن تساهم في توسيع إطار التعاون وترسيخ اللامساواة على نطاق عالمي، فإن تبني العولمة كمنظور طويل المدى وتطوري ربما يعمل في منظور المؤلف على تخطي هذه المشكلة. وما يجب أن نعترف به حسب المؤلف هو، أن العولمة غير عادلة، فبقدر ما توسع التعاون نجدها كذلك تعمق اللامساواة. وهذا التناقض ليس جديداً في التاريخ. وقد فحص المؤلف هذا المنظور من وجهة نظر الهجرة والشتات اللذين كثيراً ما استخف بدورهما. لقد أدت التحركات السكانية الكبرى في العالم إلى الاحتكاك بين الثقافات المختلفة وإلى اختلاط الأعراق وتلاقي الجينات والملامح الفيزيولوجية، وأدت هذه الحركات إلى انتقال الأمراض التي رافقتها على نطاق واسع أساليب الرعاية الصحية. وإذا كان المنادون بالمحلية يعارضون العولمة أو شكلها الحالي، فإن الرؤية التي صارت أكثر شيوعاً في الوقت الراهن أن اختلاط المجموعات البشرية يؤدي إلى مزج الثقافات التي كثيراً ما احتوت على رؤى توسعية أو تطلعية للوحدة الإنسانية. فتداخل الثقافات تولد تركيبات وخيارات جديدة في نمط الحياة والفرص الاقتصادية.

لكن الانتقاد الذي يمكن أن نوجهه إلى هذه النقطة هو أنه عندما يمتزج التغير السريع والأساسي مع الاستقرار يصبح من الصعب أن تضع توازناً بسهولة. والسؤال الذي يطرح هنا، من الذي يقوم بشيْد البنى التي تتدفق عبرها الأشياء، ومن الذي يتحكم أو لا يتحكم فيها وينتفع بها؟

ـ 3 ـ

يحرص المؤلف في الفصل **الثالث**، بحسّ ثقافي، على تبيان كيف أن العولمة تلازمت مع عدة مفاهيم متضاربة للاختلاف الثقافي. فالوعي بأن العالم «يصبح أصغر»، وكذا الوعي بالاختلاف الثقافي في نظره، ينحسر تزامناً مع حساسية متزايدة للاختلاف الثقافي. كما أن «البروز المتنامي للاختلاف الثقافي؛ يمثل جزءاً من تحول ثقافي عام، يشمل انعكاسية ذاتية أوسع للحداثة» (ص 67).

إن الاختلاف الثقافي حسب المؤلف اكتسب شكلاً مختلفاً. إذا كان هذا الاختلاف قد اعتاد أن يأخذ هيئة الفروق القومية، وهناك صور أخرى من الاختلاف أتت الآن في المقدمة؛ كالجنس والهوية السياسية والحركات الدينية والعرقية وحقوق الأقليات والسكان الأصليين. ويتمثل نقاش آخر في أننا نعيش «صدام الحضارات» الذي يولد منافسة

وصراعاً. وهنا قدمت الثقافة بوصفها الصدع للصراع بسبب الاختلافات الثقافية.

وفي الرؤية **الثانية**، يؤدي الترابط الكوني إلى زيادة التقارب الثقافي، كما في الامتداد الكوني للنزعة الاستهلاكية، والصورة المختصرة لهذا الزخم يسمى الماكدنلدة (McDonaldization). التي هي صورة للتجانس العالمي للمجتمعات. والماكدنلدة صورة من صور الفكرة الكلاسيكية للعالمية وأشكالها الحديثة من التحديث والانتشار العالمي للعلاقات الرأسمالية.

ويرى فريق **ثالث** الذي هو نموذج آخر يختلف عن النموذجين السابقين، أن ما يحدث هو عمليات من المزج أو التهجين عبر الأماكن والهويات. والتهجين يحدث بين عناصر ثقافية ونطاقات داخل المجتمعات. كما يشمل التوفيق بين المعتقدات والمزج اللغوي، وتمازج الأجناس والتشابك. ويؤدي هذا إلى تآكل الدولة القومية والاقتصادات القومية والهوية الثقافية القومية، وهذا التآكل يمثل لحظة شديدة التعقيد والخطورة وتطرح صعوبات لفهم الأرضية الثقافية القابعة أمامنا لدراسة العولمة والثقافة.

ـ 4 ـ

يُعنى الفصل **الرابع** بفكرة العولمة كتهجين يفضي إلى مزيج كوني. ولتوضيح هذه الفكرة يستحضر المؤلف تعريفاً للعولمة قدّمه ألبرو (Albrow) وهي «كل تلك العمليات التي بها تندمج شعوب العالم في مجتمع عالمي واحد أو مجتمع كوني» (ص 95). كما يستحضر تعريف كل من «روي» (Rowe) و«شيلين» (Schelling) حول التهجين بوصفه «الأساليب التي بها تصبح الأشكال منفصلة عن ممارسات قائمة، وتعود للاتحاد مع أشكال أخرى في ممارسات جديدة» (ص 101).

وفي الوقت الذي تسير فيه العولمة نحو الإضعاف النسبي للدولة الأمة، تعنى كذلك بتعزيز المحلية والتمشي معها على نحو يساعد الشعوب على تأكيد ولاءات محلية وتثمين هوياتها الخاصة مع ضمان مشاركتها في قيم وأنماط حياة عالمية. أما التكوينات الهجينة فقد تشكلت بفعل تداخل منطقيات مختلفة تظهر نفسها في مواقع ومساحات تهجين. وهكذا صار التداخل الثقافي محوراً رئيسياً لهذا المنظور رغم ما يطرحه من مشكلات مختلفة تتعلق بالإطار السياسي للاحتفاء بالتهجين، وكذلك المقياس الذي يمكننا من التفريق بين التهجينات، لأن التهجين اهتم بخليط الظواهر التي ثبت اختلافها وانفصالها في نفس الوقت. وعمليات العولمة في الماضي والحاضر يمكن وصفها بشكل مقبول كعمليات تهجين. و«يلمح التهجين إلى الحدود؛ فبدون الحدود لاي وجد التهجين» (ص 130).

ـ 5 ـ

يرد الفصل **الخامس** على انتقادات التهجين. ويرى المؤلف أن تفحُّص رد الفعل العنيف المعادي للتهجين فرصة لتعميق وتحسين رؤيتنا للتهجين. إن النظريات المعادية للتهجين تعد التهجين زائفاً و«تعددية ثقافية وهمية». والمشكلة الحقيقية في النهاية ليست التهجين الشائع على امتداد التاريخ وإنما الحدود والنزعة الاجتماعية. فالتهجين يجعل من الحدود مشكلة تطرح على عدة مستويات. وعرض الفصل أنواعاً

مختلفة من التهجين. ويرى المؤلف أن فكر التهجين انتقد لكونه «فكراً تابعاً لا يكتسب معنى إلا في فرضية النقاء» (ص 138). والتهجين لا يعكس حقائق اجتماعية واقعية، فهو زائف وبلا جذور. إن عملية التهجين ضاربة في عمق التاريخ والمزج يتسارع بسبب التغيرات البنيوية الكبرى التي يشهدها العالم مع العولمة، لكن الهجوم اليوم لا يهتم إلا بالتهجين الثقافي ويتم التغاضي عن الأنواع الأخرى. والقضية ليست مع أو ضد التهجين، بل التساؤل عن ماذا يعني التهجين وما الفائدة منه؟ وما الذي تعنيه الحدود في زمن تتزايد فيه الأنشطة العابرة للحدود؟

ورغم أن انتقادات كثيرة انصبت على التهجين إلا أن القصور الأبرز هو أن التهجين ليس متكافئاً. والتهجين لا معنى له حسب المؤلف «بدون الافتراض المسبق للاختلاف والنقاء والحدود الثابتة» (ص 147). والمشكلة الحقيقية بالنسبة إلى التهجين تكمن في الهوية الذاتية التي تطرح عدة مشكلات التي من أكثرها وضوحاً هي كيف تراقب الهوية الذاتية الهجينة إذا كانت أغلب نظم التصنيف وأدوات القياس لا تسمح بهوية متعددة وبينية؟ أحياناً يشير التهجين بصورة من الصور إلى انقضاء مركزيات وهيمنة أخرى، والمشكلة التي تطرح هنا في الحوار حين نتحدث عن التهجين، هل نناقش دوافع من يتحدثون عن التناغم أم دوافع من يتحدثون عن الحدود؟

إن نظرية التهجين تعد حلقة أخرى لنقد «ما بعد الحداثة» من أجل تركيز الانتباه على الاقتصاد السياسي والطبقات والعدالة الاجتماعية والسياسات القاسية. وهذا يكشف أيضاً عن غياب جوانب متعددة للنقاش الذي يتناول فكرة التهجين، وهي من الاعتبارات المفتقدة أيضاً في رد الفعل العنيف المناهض للتهجين. وتشتمل فكرة التهجين على معان مختلفة ليس عبر الزمان فحسب، وإنما عبر السياقات الثقافية أيضاً.

ـ 6 ـ

يتناول الفصل **السادس** فكرة التقسيم الثنائي للشرق والغرب الذي أدى إلى ظهور الاستشراق. ويرى المؤلف أن الاحتكاك الثقافي بين الغرب والإسلام، واحد من أكثر التقسيمات الثقافية اختلافاً ومبالغة على الإطلاق. والغاية من تتبع تهجينات الشرق/الغرب هي الكشف عن العلاقات المتداخلة بينهما، لأن الشرق/الغرب «طريقة خاصة لتقسيم العالم» (ص 174). ويبين الفصل كيف أن افتراض تلاقي الشرق والغرب ضارب في القدم وكيف أن المزج بينهما موضوع هادف لأسباب مختلفة. ورغم أن التاريخ الكوني يتغير في ظل العولمة فإن المركزية الأوروبية هي المهيمنة.

ورغم التقسيمات الشرق/الغرب، فإن العالم الإسلامي نفسه مندمج في الرأسمالية الغربية على نحو كامل، كما أنه متفرد في نفس الوقت. وما يتم التغاضي عنه كثيراً هو «أن العالم الإسلامي مزيج أصلاً؛ فهو يحوي نطاقات وأخلاطاً جغرافية وحضارية... وقد أوغل الإسلام أيضاً في التقاليد العبرية والمسيحية» (ص 178). واليوم يشمل التأثير الغربي في الشرق العلم والقومية ومؤسسات الدولة، مثل الدساتير والبيروقراطيات الحديثة والكثير من أنماط الحياة. وإذا كانت هناك سيطرة لأوروبا على الشرق بل وعلى نطاق كوني في القرون الماضية فإنه مع القرن العشرين، استؤنفت «استشراقية العالم»

والشرقنة في مواجهة الغربنة مع «التأثير المتنامي لليابان» (ص 191) والصين وما يسمى «نمور آسيا» بعامة.

ـ 7 ـ

يختم الفصل **السابع** الكتاب بفكرة مهمة تنفي براءة العولمة والثقافة، ويؤكد أن المتغير المتدخل في أغلب الحسابات هو الحداثة. وعلى هذا الأساس حدد ثلاث قوى موجهة تتمثل بالعولمة، الثقافة، الحداثة. هذه القوى التي تأتي معاً في حزمة مع التحديث بوصفه المتغير البات. وفي ما يتعلق بالتهجين، يستحضر المؤلف من جديد تساؤل «ألكالي» (Alcaly) حول ماذا يعني التهجين في مشاهد القطبية والصراع؟ وإجابته بأن التهجين هو شطب المسافة الوسط. لكنه يستدرك متسائلاً: هل يعني الشطب أنه لا وجود للمسافة الوسط؟ وهنا يطرح مثالاً عن التهجين في منطقة الصراع الأشد في العالم ويتعلق الأمر بمناطق الحدود بين الكيان الصهيوني في الأراضي المحتلة عام 1948 والأراضي الفلسطينية المحتلة عام 1967.

هنا تطرح في زمن التنقلات أسئلة مثل: لماذا ينبغي أن ترتكز الهوية على الاستقرار بدلاً من الفئات المتنقلة؟ ولماذا ينبغي أن يمنح التحليل ميزة للاستقرار بدلاً من الانتقال؟ في هذا السياق، يحاول المؤلف أن يستشرف المستقبل ويدعونا إلى أن نتوقع أن يصبح الانتقال ملحوظاً مثل الاستقرار أو أكثر منه في ظل تكنولوجيات متغايرة وظل تنامي الأعمال العابرة للحدود القومية. وهنا يستشهد بما توقعه الفيلسوف المكسيكي خوسيه فاسكونسيلوس (José Vasconcelospdk) حين توقع مزجاً كونياً في المستقبل، أو نشوء ما يسمى العرق الكوني.

خاتمة

يتبين مما سبق، أن العولمة والثقافة موضوع مفعم بالحيوية. وهو موضوع العصر الذي يعالج الصيغ الجديدة للعولمة؛ تلك الصيغ التي ينبغي أن تتفاعل مع الصيغ الجديدة للثقافة الجماهيرية العالمية سواء منها التي تعيش داخل الحدود القومية للدول أو تلك التي تعيش في وضع التنقل العابرة للحدود، رغم أن كل هذه الصيغ الثقافية تظل، من زاوية التكنولوجيا، ورأس المال، والعمالة المتقدمة، متمركزة في الغرب. إن تناول موضوع العولمة والثقافة هو تناول لموضوع مستقبل الهويات والثقافات القومية، وإعادة التفكير في أفكار الحداثة، والدين وتاريخ العالم. وهكذا يتبين لنا بجلاء أنه من المفيد جداً أن تبحث الثقافة والعولمة تاريخياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً ومكانياً بصورة تخصصية جداً على النطاق العالمي حتى تتوضح الصورة جيداً؛ وخصوصاً أننا نعلم أنه لا توجد دراسات نقدية مستوفية بين الإمبريالية الغربية وثقافتها، فما بالك بأجزاء العالم الهامشي التابع لها. وإلقاء نظرة عمومية على العولمة قد يعكس المزج الكوني للثقافات وتحجب الاختلاف على النطاق المحلي والإقليمي أو القومي. فالتجانس لن يكون أبداً كاملاً، ويتطلب الأمر الاعتراف أحياناً بالاختلافات واستيعابها داخل الإطار الأكثر اتساعاً لما يعد التصور الغربي الإمبريالي للعالم □